إمتحان كتابي في مقياس الأدب العربي والاستشراق الفوج 3

الأسئلة الردود 16 الإعدادات

13:10-14:40

نص السؤال: مبدأ التحقيب السياسي، والمقاربة الفيلولوجية للنصوص، هي أهم الدعائم التي قام عليها مفهوم تاريخ الآداب العربية في القرن 19، اشرح ذلك (6/6ن) *

- التحقيب السياسي:

ظهر في التراث العربي تحقيب قائم على ما اصطلح عليه ب "الطبقة"، أو علم الطبقات، الذي يعد من إبداعات الحضارة الإسلامية، وقد وضع العلماء العرب عدة ضوابط للتصنيف حسب الطبقات (ضابط الدين، وضابط العدد، وضابط الزمان، وضابط المكان)، أما التحقيب الذي اختاره المستشرقون في تأريخهم للأدب العربي فهو التحقيب الذي يجعل من عصور التاريخ السياسي عصورا لتاريخ الأدب العربي. ويركز على دور المنعطفات السياسية والتاريخية الكبرى في الانعطافات الأدبية والفنية. وفي ما يلي نماذج من هذا التحقيب :

قسم كارل بروكمان – تاريخ الأدب العربي- إلى مرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى: أدب الأمة العربية من أوليته إلى سقوط الأمويين سنة 132 هـ/750 م، وتنقسم هذه المرحلة إلى الأقسام التالية :

- الأدب العربي إلى ظهور الإسلام.
- محمد [صلى الله عليه وسلم] وعصره.
- عصر الدولة الأموية.

المرحلة الثانية: الأدب الإسلامي باللغة العربية. وقد قسم هذه المرحلة إلى ما يلي :

- عصر ازدهار الأدب في عهد العباسيين بالعراق منذ حوالي 750م إلى سنة 1000م تقريبا.
- عصر الازدهار المتأخر للأدب منذ سنة 1000 م تقريبا إلى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة 1258م.
- عصر الأدب العربي منذ سيادة المغول إلى فتح مصر على يد السلطان سليم سنة 1517م.
- عصر الأدب العربي من سنة 1517م حتى أواسط القرن التاسع عشر.
- الأدب العربي الحديث.

أما المستشرق "كارلو نالينو" فقد اعتمد تحقيبا يقوم على ثلاثة عصور أدبية :

1. الآداب العربية في العصر الجاهلي.
2. الآداب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين.
3. الشعر في عصر بني أمية.

تكاد هذه الخطاطة المنهجية تتكرر في أغلب التأليف التاريخية الاستشراقية، مع وجود اختلافات بينها حول قضايا جانبية منها :

- عدد العصور الأدبية، فهي عند بروكلمان ستة عصور، وعند نالينو وجيب خمسة عصور وعند نيكلسون وهوار سبعة عصور.
- بداية ونهاية هذه العصور، في علاقتها بالمدة التي يستغرقها كل عصر.
- مسألة التسمية؛ إذ هناك من المستشرقين من حافظ على الاصطلاح التاريخي السياسي (العصر الجاهلي- العصر الإسلامي- فالعصر العباسي...الخ)، وهناك من اعتمد اصطلاحات أخرى: فالمستشرق جيب- مثلا- يغلف العصور السياسية بالصفات التي يعتقد أنها طغت على العصر من بين هذه الاصطلاحات: العصر البطولي (يقصد به العصر الجاهلي)، ثم عصر الغزو والتوسع (يقصد به العصر العباسي الثاني)، العصر المملوكي.

هذه خطاطة تطابق بين التحولات السياسية والتحولات الأدبية، بحيث يصبح الحدث السياسي المتمثل في سقوط دولة أو نشوئها حدا فاصلا بين العصر الأدبي السابق واللاحق. دون الانتباه إلى أن تاريخ الأدب العربي لا تحكمه دائما الانقطاعات التي تسود التاريخ السياسي في انتقاله من مرحلة إلى أخرى، وآية ذلك أن هناك شبه إجماع بين هذه التأليف على اعتبار "الجاهلية" حقبة من تاريخ الأدب العربي تنتهي سنة 622م، والعصر الأموي حقبة من تاريخ الأدب العربي تنتهي سنة 750م، وبذلك فهم يؤكدون تمايز هذين العصرين تبعا للتمايز السياسي، لكنهم في الوقت نفسه يركز أغلبهم على وجود تشابه بين هذين العصرين على مستوى المضامين والأشكال الفنية نشير هنا إلى ما أورده بروكلمان في هذا المجال بقوله: "ولم يؤثر الإسلام تأثيرا عميقا في شعراء العرب، كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا بذلك، فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة في مسالك أسلافهم الجاهليين". لكن الممارسة العملية – من خلال عملية التأريخ- لا تخرج عن الإطار المشار إليه سابقا، الذي يقوم على تسويد التحولات السياسية على التحولات الأدبية.

وحتى التأليف التي كتبها المؤرخون العرب حول الأدب العربي، هي تأليف أعادت إنتاج الرؤية الاستشراقية مضمونا وشكلا، مما يجعلها تندرج ضمن ما يسميه إدوارد سعيد "استشراق من الدرجة الثانية". يكفي أن نشير هنا إلى جرجي زيدان الذي يعتبر المؤلفات الاستشراقية هي النموذج في مجال التأليف التاريخي الأدبي الحديث، لأنها "أفضل نموذج لآداب العالم المتمدن [على حد تعبيره].

- المقاربة الفيلولوجية للنصوص: تقوم على ثلاثة مبادئ:

1/ مبدأ التأصيل: فالمؤلفات الاستشراقية التي أنجزت ضمن تاريخ الأدب العربي كانت معنية بإرجاع الظواهر والنصوص والقضايا إلى أصولها الأولية، فتأريخ الأدب العربي من منظور القراءة الاستشراقية محكوم بالمركزية الأوربية، فكثيرا ما ينظر إلى مباحث تاريخ الأدب العربي وقضاياه وعلومه في علاقتها بأصول يونانية أو هندية أوربية عموما، لذلك نصادف في التأليف الاستشراقية المذكورة من يتناول النحو العربي في علاقته بالأصول والمراجع النحوية في الإسكندرية أو غيرها، وينظر إلى علم العروض العربي في علاقته بالأوزان الأوربية، كما يضع تصورا للهجات العربية القديمة واللغة العربية الفصحى من خلال العلاقة التي حكمت اللغة اللاتينية واللهجات الرومانية المختلفة.

وقال المستشرقون في الدراسات التي اهتمت ببعض المبدعين العرب من كتاب وشعراء أمثال: مذهب ابن حزم في طوق الحمامة، القائم على الحب العذري "غير مألوف ولا معهود في الثقافة العربية الإسلامية التي يطبعها الحب الحسي"، فالمثالية المسيحية هي أصل ما نعثر عليه في كتاب طوق الحمامة- وغيره من المؤلفات العربية- من حب عذري، وتصوف الحلاج – عند ماسينيون- ثورة على الإسلام "السني"، أرجعه إلى التثليث المسيحي الذي هو المتنفس الحقيقي للعقل والفكر.

فهم خلصوا إلى استنتاجات حول سمات الشعوب الموصوفة؛ فالشرقيون يتسمون بالتحجر والبحث عن المطلق، بينما الغربيون يميلون إلى المعرفة العلمية، ونصادف هذا الموقف- مثلا- عند "بلاشير" الذي يرى في كتابه "تاريخ الأدب العربي" أن الأدب العربي يفتقد عموما إلى الإبداع والعبقرية.

2/ عملية التنصيص وتحليل النصوص:

- عملية التنصيص: من حيث جمع النصوص، والوثائق الأدبية، وتفسير ماضي الظواهر الأدبية في سياقها التاريخي والاجتماعي: كيف جاءت؟ ومتى ظهرت... الخ.
- تحليل النصوص: اعتمادا على الشرح على طريقة ما يسميه لانسون "السير خطوة خطوة"، وذلك من خلال تعقب الأفكار وفق تسلسلها في النص، أي وفق نظام خطي متتابع.

تقدم هذه القراءة الفيلولجية نفسها باعتبارها قراءة تتوخى الحياد وتهدف إلى إنتاج خطاب موضوعي، وتزعم أنها تقف عند حدود التلقي المباشر من النص أو من التاريخ وتجتهد في أن يكون هذا التلقي بأقل تدخل ممكن من المؤرخ، وبأكبر قدر من "الأمانة"، وحتى على مستوى الخطاب، تغيب الذات المتكلمة، ويعتمد المستشرق /المؤرخ في سرده للأخبار والمعلومات طريقة أقرب إلى ما يقوم به "السارد المحايد الموضوعي" في السرد، حين تغيب الذات المتكلمة على الصعيد اللغوي ويحافظ السارد على مسافة فاصلة بينه وبين ما يرويه.

لكن ما قام به المستشرقون عكس ما قالوه، حيث أبرزوا من تاريخ الأدب العربي إلا ما يناسبهم، واختزلوا منه إلا ما يخدمهم، وأعادوا صياغته وفقا لتوقعاتهم وانتظارا تهم منه، دون دراسته بهدف إعادة الانتظام الواعي فيه، واستعادته في ضوء أسئلة الحاضر وحاجياته. لذلك فمن المفروض أن قراءة التاريخ الأدبي العربي ينبغي أن تتم من موقعنا التاريخي للغير، والأدوات المنهجية والإجرائية التي جاء بها المستشرقون يمكن اعتمادها كمكتسبات علمية إنسانية عامة لما يخدمنا فقط.

3/ الطابع الشمولي: لعل النموذج الذي يمكن تقديمه في هذا المجال هو نموذج تاريخ الأدب العربي لبروكلمان بأجزائه الأساسية التي أصدرها سنة 1898، وأجزائه التكميلية التي صدرت في مجلدات كبيرة تصل إلى حوالي 2600 صفحة سنة 1942، ليكون هذا المشروع قد استغرق حوالي نصف قرن مع تأكيد بروكلمان في مقدمة الكتاب بأن عمر المؤرخ الواحد لا يسعف في إنجاز تاريخ أدبي على الوجه الأكمل "ولكن ما يعجز عنه عمر تستطيع أعمار أن تعمله"، وعليه يتجلى مبدأ الشمولية عند المستشرقين من خلال تأليف تاريخية عامة تؤرخ للأدب كما تؤرخ للأحداث السياسية والاجتماعية والتاريخية والدينية بشكل عام، ولا تؤرخ للأدب بمعناه الاصطلاحي المحدود، مما يجعل هذه المؤلفات تحضن كل مكونات الثقافة العربية الإسلامية.

وعليه يمكنني أن أختم ما قاله الاستشراق عن تاريخ الأدب العربي في قول إدوارد سعيد: "المستشرق يمكن أن يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق تحمل طابعه المميز الخاص، وتوضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغي له أن يكون، وتتحدى تحديا واعيا وجهة نظر إنسان آخر للشرق، وتزود الإنشاء الاستشراقي بما يبدو، في تلك اللحظة، بأمس الحاجة إليه، وتستجيب لمتطلبات معينة ثقافية، ومهنية، وقومية، وسياسية، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية".